

## مغربي عاكف على حروفيته الخاصة

عبدالله الحريري

الذهاب إلى الرسم بحساسية الحفار

فاروق يوسف  
كاتب عراقي

حين يكون الرسام ابن ظاهرة فنية متشعبة من جهة الأنواع التي تشملها فإن ذلك ينعكس على أدائه واكتشافاته أسلوبيا وتقنيا ناهيك عن تعدد طرق الرؤية التي تفيض بالاحتمالات الجمالية.



الصورة هي مقصد الحريري الأول والأخير، بعد أن سيطرت طويلا فكرة «الهوية» على أساليب فناني مدرسة «الدار البيضاء» التي تربى في أحضانها



المغربي عبدالله الحريري قضى سنوات التأسيس في ورشة أخيه المعماري أحمد. هناك تعرف على السينما والأدب والفوتوغراف والموسيقى «وحتى الكيمياء حيث قمنا بتصنيع الصابون» كما يقول.

الصورة كنز مرثيات

فنون فتحت عينه على عالم شاسع سيكون عليه أن يلتقط عدته الفنية من مختلف جوانبه. أن ترسم العالم من حولك شيء وأن يكون الرسم خلاصة طريقته في التفكير في العالم عبر تقنيات مختلفة هو شيء آخر. عرف الحريري كيف ينجو من كل ما يعلق بالصورة من حكايات، وذلك

من خلال الاستفادة من تداخل تأثيرات الفن من بعضها البعض الآخر. كانت الصورة مقصده الأول والأخير، بعد أن سيطرت فكرة «الهوية» على أساليب فناني مدرسة «الدار البيضاء» التي تربى في أحضانها.

لم تكن الهوية لديه نوعا من المسعى العقائدي. وضع «محلته» في سياق أكبر منها وهو ما تعلمه من فن «غرافيك». في البدء كان الحرف جماليا غير أنه لم يتجاوز إلى أفق نظرية هي عبارة عن تهويمات صوفية. لذلك لم يكن حروفا بالمعنى السائد. «الحروفي» من غير حروفية» تلك هي واحدة من الخلاصات التي انتهى إليها الناقد المغربي فريد الزاهي وهو يحاول تقييم تجربة النظر إلى فن الحريري. لن يكون الاستنتاج الذي توصل إليه الزاهي غامضا أو صعبا على الفهم إلا إذا اعتبرنا خطأ كل من وضع حرفا على سطح لوحته حروفا.

تلك سذاجة مخالفة لم يكن الحريري لطيق التعامل معها من خلال فنه. لقد استفاد الفنان من التجارب الفنية المغربية التي سبقت تجربته غير أنه لم يقس تغيره الأسلوب في ميزانها. صعقه التعرف على التجربة البولندية على المستوى التقني فتغيرت أفكاره عن المسافات التامة التي يمكن أن يصل إليها التعامل مع الصورة باعتبارها كنز مرثيات.

ولد الحريري بحبي درب السلطان في الدار البيضاء عام 1949. درس الرسم في معهد الفنون الجميلة بالدار البيضاء سنة 1969 فاز بجائزة الشبيبة والرياضة. بعد تخرجه من كلية الفنون الجميلة عام 1973 انتقل إلى بروجير بفرنسا لدراسة فن الديكور المسرحي والسينوغرافيا ومنها انتقل إلى باريس لدراسة فن الغرافيك والتعرف عن قرب على محترفات الرسامين. حين عاد إلى المغرب احتضنه الفنان محمد شبيعة وفتح أمامه أبواب التعاون في مجال الهندسة الداخلية والتصميم. يومها انهمك الحريري في أعمال مطبعية وتصميم أغلفة الكتب والعلامات التجارية.

بعدها درس فن الغرافيك بروما ومنها انتقل عام 1980 إلى لوزن بولندا ليكمل دراسته ضمن ورشة فنية في تقنيات الحفر الطباعي. في كلية سيدي عثمان بالدار البيضاء قدم أطروحته «الرسوم المتحركة لورشة الفنون التشكيلية».

أقام معرضه الشخصي الأول عام 1973 بميامي بيتش بالدار البيضاء. بعده أقام العديد من المعارض داخل المغرب وخارجه يمكننا أن نذكر أهمها وهي التي أقامها في سنوات

مختلفة بـ «روما، غرينوبيل، لوزن» حين عاد الحريري من روما فاجأ الوسط الفني بمعرض طليعي قدم من خلاله تجربته مع اللون الأسود. وهي التجربة التي عاد إليها غير مرة عبر مسيرته الفنية. أحدث ذلك المعرض صدمة في المشهد الفني، بحيث حاول الكثيرون السخرية منه ومن الفنان واعتبروا أن الحريري عاد إلى لوح التدريس الأسود. ومن الظريف أن ظاهرة استعمال اللون الأسود انتشرت بعد ذلك بين الفنانين المغاربة.

«السواد هو فضاء الحميمية والحب والحلم والهدوء» يقول الحريري معلقا على معرضه الذي أقامه سنة 2016. غير أن النقد المغاربة يعوون إلى البدايات. فيوم انتسب إلى معهد الفنون عام 1965 وجد نفسه في خضم التحول الطليعي الذي أحدثه فنانون مدرسة الدار البيضاء. كان هناك فريد بلكاهية ومحمد المليحي ومحمد شبيعة. يومها كان نجم الثلاثة في صعود، كونهم يمثلون روح الحدأة الثانية في الفن التشكيلي المغربي بعد مرحلة أحمد الشرقاوي وجبالي الغرابوي.

في إطار الحروفية الشعرية

كان لا بد للفتن القادم بشغف الفنان من حبه الفقير أن يتأثر بتلك الروح الطليعية المنقحة على العالم، غير أن ذلك التأثر لم يكن في مكانه أن يحدث انقلابا في شخصيته لولا تعرفه عن قرب على عالم السينما في روما.

لقد تعلم الحريري من السينما ما لم يتعلمه من دروس الرسم. سوف يكون عليه أن يختصر درس «بازوليني» السينمائي بالشعر.

في استنتاجه النقدي الغريب اعتمد فريد الزاهي على حقيقة أن عبدالله الحريري لم يكن خطاطا، بمعنى أنه لم يدرس الخط ولم يمارسه. لذلك فهو من وجهة نظره حروفي يقف خارج أسوار المدرسة الحروفية التي كانت تدعو إلى استلهام جماليات الحرف العربي.

السؤال «ما الذي فعله الحروفيون ولم يفعله عبدالله الحريري؟» صاحب نظرية «البعد الواحد» في سبعينات القرن الماضي شاكر حسن آل سعيد لم يكن يجيد الخط. تبعه في ذلك كل الحروفيين. هناك استثناءات قليلة كما هو حال اللبناني وجيه نحلة والتونسي نجا المهراوي. سيكون مفيدا أن نعرف أن نحلة والمهداوي كانت إجادتهما محدودة في إطار أنواع قليلة من الخط العربي. ليست حجة الزاهي مقنعة. فالحريري هو فنان حروفي تقع تجربته الفنية في إطار الحروفية

الغنائية التي يمكن تسميتها بطريقة مواربة بـ «الحروفية الشعرية». تعرف الحريري عبر مسيرة حياته الحافلة باللقاءات العظيمة على فنانيين كان لهم الأثر العظيم في صنع الحدأة الفنية في مرحلة ستينات القرن الماضي.



التعرف على التجربة البولندية على المستوى التقني يصعب الحريري، لذلك تغيرت أفكاره عن المسافات التامة التي يمكن أن يصل إليها التعامل مع الصورة باعتبارها كنز مرثيات



الطباعي قد تراجع في ما بعد وخيب آمال المراهنين عليه فإن ما اكتسبه الحريري من تقنياته يعد عنصرا أساسيا في بنيته الفنية.

نقل الفنان خبرة الحفر الطباعي إلى سطوح لوحاته بحساسية، ما كان ليبلغها من خلال ممارسة الرسم وحده. تلك هي حساسية الحفار التي لا تخطئها العين الخبيرة. يبدو السطح من خلال تلك المعالجة كما لو أنه يُخفي سطوحا تحته ويشف عنها. تلك تجربة وسعت من دائرة المجال الحيوي التي يتحرك فيها الفنان المغربي الحديث. وهنا بالضبط تكمن أهمية فن عبدالله الحريري على المستوى الثقافي العام.

كان الحريري وفيما لمعادلة جيله القائمة على ضرورة التحرر من مفردات الهوية المحلية من غير التخلي عن فضائها العام. فكانت هويته منفتحة في اتجاهين: الداخل والخارج.

الإيطالي البرتو يوري كان واحدا منهم وهو صديقه. لذلك يمكنني القول إن شغف الحريري بالحرف العربي قد تسلسل إلى طريقته في التفكير في السطح التي اكتسبها من تأثره بفناني الستينات الأوروبية. لقد نقل الحريري «الحروفية العربية» إلى فضاء أوروبي، حين تنفس هواءه شعر بأنه يهب الحرف العربي حياة جديدة.

في مرحلة من سبعينات القرن الماضي اعتقد الكثيرون أن مستقبل الرسم صار في عهدة فن الحفر الطباعي «غرافيك». ذلك فن، يسير نقله كما أن كلفته ليست باهظة إضافة إلى أن تداوله التجاري سيكون متاحا لفئات كثيرة من الشعب. كان الحريري واحدا ممن شغفوا بذلك التحول الديمقراطي فانخرط في تعلم أسرار الحفر الطباعي «أنواعه، تقنياته» بدءا من روما وانتهاء بلسون البولندية. وإذا ما كان فن الحفر

